الشيطان المزيف

محمود سالم

الشيطان المزيف

تأليف
محمود سالم

هنـــداوي

الشيطان المزيف

محمود سالم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: وجدان توفيق

الترقيم الدولي: ٣ ٢٧٩٩ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٨٩.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ محمود سالم.

المحتويات

من هم الشياطين الـ «١٣»؟	٧
أبطال هذه القصة	٩
أمرٌ من رقم «صفر»!	١١
رسالة ضوئية	١٧
الشيطان المزيف	٢١
رحلة في الفجر!	٢٧
خطة جماعية ... للقتل	٣٣
العيون الذئبية	٣٧
إلهام ... آخر المزيفين	٤١
المفاجأة الأخيرة	٤٥

من هم الشياطين الـ«١٣»؟

إنهم ١٣ فتًى وفتاةً في مثل عمرك، كلٌّ منهم يُمثِّل بلدًا عربيًّا. إنهم يقفون في وجه المؤامرات الموجَّهة إلى الوطن العربي ... تمرَّنوا في منطقة الكهف السِّري التي لا يعرفها أحد ... أجادوا فنون القتال ... استخدام المسدسات ... الخناجر ... الكاراتيه ... وهم جميعًا يُجيدون عدة لغات.

وفي كل مغامرةٍ يشترك خمسة أو ستة من الشياطين معًا ... تحت قيادة زعيمهم الغامض رقم «صفر» الذي لم يرَه أحد، ولا يعرف حقيقته أحد.

وأحداث مغامراتهم تدور في كل البلاد العربية ... وستجد نفسك معهم مهما كان بلدك في الوطن العربي الكبير.

أبطال هذه القصة

رقم «١»: «أحمد» من مصر.

رقم «٢»: «عثمان» من السودان.

رقم «٣»: «إلهام» من لبنان.

رقم «٤»: «هدى» من المغرب.

رقم «٥»: «بو عمير» من الجزائر.

رقم «٦»: «مصباح» من ليبيا.

رقم «٧»: «زبيدة» من تونس.

رقم «٨»: «فهد» من سوريا.

رقم «٩»: «خالد» من الكويت.

رقم «١٠»: «ريما» من الأردن.

رقم «١١»: «قيس» من السعودية.

رقم «١٢»: «باسم» من فلسطين.

رقم «١٣»: «رشيد» من العراق.

رقم «صفر»: الزعيم الغامض الذي لا يعرف حقيقته أحد!

أمرٌ من رقم «صفر»!

أطلَّ قرصُ الشمس الأصفر من وراء صفحة البحر ... وأخذ ينمو ببطء، وهو يُرسل خيوطًا من الذهب فوق صفحة البحر الزرقاء الصافية حتى تحوَّل سطحُ البحر المصقول إلى مرآة ذات مزيج من اللون الذهبي والأزرق ... وقفَت «إلهام» أمام شاطئ البحر تُشاهد شروقَ الشمس في ذلك الوقت المبكر من الصباح.

كان الشاطئ لايزال هادئًا ... ولا يُسمَع فوقه غيرُ صوتِ اصطدامِ الماء فوق بعضِ صخورِ الشاطئ القليلة والزَّبَد الأبيض يمسح الرمال تحت قدمَيها. ومن أعلى حلَّقَت بعضُ الطيور البحرية فوق الشاطئ ثم طارَت مُبتعدةً، وهي تُطلق صيحاتِها المبتهجة.

وبامتدادِ الأفق ظهرَت بعضُ قمم جبال مدينة «تبوك» السعودية للجانب الآخر من الشاطئ على مسافةٍ ليست بعيدة ... وبامتدادِ الأفق يمينًا ويسارًا لم يكن هناك غيرُ الرمال الصفراء الذهبية الناعمة لشاطئ «العصلة» بجنوب سيناء، أو «العسلة» — كما ينطقُها أهلُها من البدو — وإلى الوراء ظهر عددٌ كبير من المعسكرات المصنوعة من البوص في شكل بدائي جميل ... وقد أضفى وجودُ عددٍ كبير من النخيل القصير التي تفرش الشاطئ بفروعها العريضة كأنها شموس طبيعية ساحرة ... وتزيد المكان جمالًا ... وحتى يكتمل المشهد إثارةً وجاذبية؛ ظهر بعضُ البدو الذين يركبون جِمالَهم وهي تسير متهاديةً فوق الشاطئ ... كان المنظر يبدو ساحرًا ... فاتنًا ... كأنما هو قطعةٌ من العشرينيات أو الثلاثينيات من هذا القرن ... فلا شيءَ في المكان يدل على أنه يعيش في نهاية القرن العشرين.

كانت الأكواخ البوصية ... وشجيرات النخيل القصيرة ... والبدو ... والجمال ... والشاطئ الناعس ... كانت كلُّها أشياء تُوحي بالبدائية والطبيعة النقية.

وتنهَّدَت «إلهام» في راحة ... وعندما تذكَّرَت أن هذا اليوم هو آخر أيام الشياطين الستة فوق الشاطئ أصابَها شيءٌ من الكَدَر ... فقد انقضَت أيام الإجازة القصيرة فوق الشاطئ كأنها حلم ... وها هي «إلهام» يُصيبها الحزن لمجرد التفكير في أنها ستُغادر ذلك الشاطئ الممتع.

ومن الخلف أطلَّ «أحمد» وهو يقول باسمًا: هل تُخاطبين البحر؟

ابتسمَت «إلهام» قائلةً: إنني أخاطب المكانَ كلَّه ... البحر والشاطئ والنخيل والصخور. إن مَن أطلق اسمَ «العسلة» على هذا الشاطئ كان على حقٍّ ... فهو كالعسل فعلًا.

ضحك «أحمد» قائلًا: يبدو أنكِ بعد قليل سوف تكتبين شعرًا وغزلًا في هذا الشاطئ.

قالت «إلهام» باسمةً: إنه يستحق ديوان شعر كامل ... فبقدر ما شاهدتُ من شواطئ في كلِّ أركان العالم، فلم أشاهد شاطئًا في مثل روعة هذا الشاطئ.

أحمد: إن شواطئ سيناء كلها رائعة ... فقط تتطلَّب منَّا الاهتمام بها.

ومن الخلف ظهر «عثمان» و«خالد» و«قيس» و«بو عمير» ... ولوَّحوا لـ «أحمد» و«إلهام»، ثم انطلقوا نحو الماء وألقَوا بأنفسهم فيه، وراحوا يسبحون بقوة، وراقب «أحمد» الشياطين الأربعة، وقال لـ «إلهام»: ألَا ترغبين في السباحة؟

إلهام: أريد أن أبقى قليلًا على الشاطئ.

والتفتَت نحو «أحمد» قائلةً: هل استمتعتَ بهذه الإجازة القصيرة؟

أحمد: هذا مؤكَّد ... وأنتِ؟

إلهام: بلا شك ... وإن كان يُدهشني أن هذه الإجازة لم تكن في حسباننا.

أحمد: هل تقصدين أنها قد جاءَت كمفاجأةٍ من رقم «صفر».

إلهام: فعلًا ... إنه من النادر ما يسمح لنا بإجازات نقضيها بعيدًا ... وبدلًا من أن نطلب منه نحن إجازة قصيرة بعد مهمتنا الأخيرة، فهو الذي طلب منَّا أن نقوم بتلك الإجازة، بل وحدَّد المكان لنا ... أليس هذا مدهشًا؟

ابتسم أحمد قائلًا: بل إنه شيء ممتع ... أتمنَّى لو حصلنا على إجازة كهذه بعد كلِّ مهمة نقوم بها!

ونهض بجسده القوي الذي اكتسى بلونٍ برونزيٍّ من الشمس، واندفع إلى الماء فألقى بنفسه فيه، وأخذ يسبح بضربات سريعة قوية حتى لَحِق ببقية الشياطين.

وتأمَّلَت «إلهام» المكانَ حولها ... كان الشاطئ قد بدأ يمتلئ برُوَّاده الذين جاءوا من مختلف أنحاء العالم للتمتُّع به ... وسارَت «إلهام» قليلًا على الشاطئ ... وكانت هناك

بعضُ المقاهي المصنوعة من خشب النخيل والأشجار، وقد ارتصَّت فيها سجاجيدُ يدويةٌ على الطراز العربي، وقد جلس بعضُ السياح لشربِ الشاي أو للإفطار فوق موائد قصيرة مستديرة تُشبه «الطبلية» في جوٍّ عربيٍّ أصيل، على حين انطلقَت بعضُ أغاني «أم كلثوم» و«فيروز» من بعض المقاهي الأخرى.

ومن الخلف وقف بعضُ السياح الأجانب وقد ارتدوا الملابس البدوية الأصيلة وهم يلتقطون الصور لبعضهم ... وتنهَّدَت «إلهام» مرة أخرى ... كان المكان فاتنًا بحق.

وبعد قليل سبح الشياطين الخمسة عائدين إلى الشاطئ ... وكان في انتظارهم قاربُ صيدٍ بخاري وعددٌ من الصنانير القوية ... وانطلق الزورقُ البخاري بـ «أحمد» و«عثمان» و«خالد» في قلب الماء، وهم يُلوِّحون لبقية الشياطين. وقال «قيس» باسمًا: يبدو أن الغذاء سيكون سمكًا طازجًا اليوم.

بو عمير: هذا إذا لم يصطَدِ الشياطين حوتًا من الحيتان.

تأمَّلَت «إلهام» الشاطئَ، وقالت: لا توجد حيتان هنا ... توجد أسماك القرش فقط ... هناك حوالي ثلاثين نوعًا من أسماك القرش تعيش في البحر الأحمر.

بو عمير: سأجهز الحطب لِشواء السمك؛ فأنا أشعر أن صيد الشياطين سيكون وفيرًا.

ومضَت أكثرُ من ساعتين ... ثم ظهر زورقُ الشياطين ... وكانت هناك مفاجأة في انتظار «إلهام» و«بو عمير» و«خالد» ... فلم يصطَدْ بقيةُ الشياطين غيرَ سمكة واحدة ... سمكة قرش طولُها متر ونصف ... وبالصنارة.

تجمَّع رُوَّاد الشاطئ بأكمله حول سمكة القرش ذات الجسد اللامع المتناسق ... القوي ... والأسنان الحادة كالمنشار. قال «أحمد» وهو يمسح حبَّات العرق اللامعة فوق جبهته: لقد بذلتُ مجهودًا خرافيًّا لاصطيادها، فقد كادَت تقلب الزورق بنا.

قال «عثمان» ضاحكًا: تقصد أننا بذلنا مجهودًا خرافيًّا معًا لاصطيادها؛ فقد قاومَت هذه السمكة صنارتَنا وكادَت تُغرقنا جميعًا ... إنها تُذكِّرني بسمكة القرش التي اصطادها الصياد العجوز في شواطئ كوبا برواية «أرنست هيمنجواي» «العجوز والبحر».

خالد: ولكن مع الفارق في أننا عُدْنا بسمكتنا سليمة وليست هيكلًا عظميًّا كما حدث لذلك العجوز المسكين.

وكان غذاءً فاخرًا ... فقد تم تقطيعُ السمكة الكبيرة إلى أجزاء صغيرة بعد سلخِ جلدِها ورأسِها ... وتم شواءُ أجزاءِ السمكة فوق نار كبيرة ... وفي النهاية تناول أغلبُ روَّادِ الشاطئ لحمَ السمكة اللذيذ بلا مقابل.

وانقضى بقيةُ النهار سريعًا ... وانحدرَت الشمسُ نحو الأفقِ البعيد فوق رمال الصحراء والجبال البعيدة ... كأنما تُوشك الشمس أن تُلقيَ بنفسها خلفها ... ونظر «أحمد» في ساعته، وقال: لم يبقَ غيرُ ساعة واحدة على مجيء سيارة الشياطين لتأخذَنا إلى القاهرة.

عثمان: سيكفي هذا الوقت لنأخذ حمامًا نُزيل به آثار ملح البحر من فوق أجسامنا، ثم نرتدي ملابسنا ونجمِّع أشياءَنا.

واتجهوا نحو مؤخرة المعسكر الذي يقيمون فيه ... وكانت هناك بئرٌ صغيرة يتدلَّى فيها دلوٌ كبيرٌ تولَّى «قيس» إسقاطَه في البئر ورفعه ممتلئًا بالماء ليغتسل به الشياطين.

وفي أقل من ساعة كانوا يقفون أمام مدخل الشاطئ يحملون الحقائب الصغيرة التي يحملونها في أيديهم وبداخلها ملابسُهم وأشياؤهم الصغيرة ... وكانوا يبدون كما لو كانوا مجموعةً من الزائرين العرب القادمين من أقطارهم لتمضيةِ وقتٍ ممتع على الشاطئ المصري.

وحلَّ الظلام تمامًا على المكان ... وأُضيئَت بعضُ اللمبات الكهربائية القليلة في محلات البازارات والمقاهي المنتشرة في مدخل الشاطئ. نظرَت «إلهام» في ساعتها بشيء من الدهشة ... الثامنة وتسع دقائق. وألقَت نظرةً إلى بقيةِ رفاقِها ... وكانت الدهشةُ تعلو وجوهَهم جميعًا.

وقال «بو عمير»: لقد تأخَّرَت سيارتُنا.

خالد: لعل عطلًا قد أصابها في الطريق.

إلهام: لو كان هذا قد حدث لجاءَتنا رسالةٌ من رقم «صفر» بذلك.

عثمان: إن رقم «صفر» لم يتصل بنا ولا مرة واحدة خلال مدة إجازتنا هنا ... أليس هذا شيئًا عجيبًا؟

أحمد: لعله أراد ألَّا يُشغلَنا ويقطعَ علينا الاستمتاع بإجازاتنا.

قيس: ليست هذه عادة رقم «صفر».

وضاقَت عيناه وهو يُكمل: لقد طلب منَّا عدمَ الاتصال به أيضًا خلال المدة السابقة ... تُرى لماذا؟

ومرَّت لحظات من الصمت ... كانت الحيرة والقلق ظاهرةً على ملامح وجوه الشياطين الستة، وكان تصرُّفُ رقم «صفر» بالفعل عجيبًا ... وغير مفهوم ... ومرَّت الدقائق بطيئة ... وأشارَت عقاربُ الساعة إلى التاسعة ... وتبادل الشياطين نظرةً صامتة ... قالت «إلهام»: أظن أن شيئًا ما قد حدث، ربما أن سفرَنا قد أُلغيَ.

بو عمير: هذا مستحيل ... إن رقم «صفر» لا يُقرِّر ذلك إلا إذا أخبرنا مقدَّمًا.

قال «أحمد» في قلق: لن يمكننا البقاء هنا وإلا سنلفت النظر إلينا ... فلنَعُد إلى عششنا داخل المعسكر قبل أن يؤجرَها صاحبُها لآخرين ... ومن المؤكد أن رقم «صفر» سيحاول الاتصال بنا هنا.

أومأ الشياطين برءوسهم بالموافقة واتجهوا عائدين إلى المعسكر ... وكانت عشتُهم البوصية لا تزال خالية لحسن حظهم، فوضع الشياطين أشياءهم بها وجلسوا على الشاطئ في قلق.

وتساءل «قيس»: وماذا سنفعل إذا لم يتصل بنا رقم «صفر» ... هل سنبقى هنا طويلًا؟

أحمد: لا أظن ... إذا لم تأتِنا رسالةٌ حتى الصباح فسنسافر إلى القاهرة ومنها إلى مقرِّنا السري.

بو عمير: لماذا لا تُرسل رسالة إلى رقم «صفر»؟

هتفَت «إلهام» بسرعة: لا ... إن تعليمات رقم «صفر» واضحة ... لا رسائل من جانبنا.

وببطءٍ أكملَت: ولا يجب علينا مغادرة المكان والسفر إلى المقر السري ... ما دامت الأوامر لم تجئْ بذلك.

عثمان: إنني قلق. من المؤكد أن شيئًا ما قد حدث ... هل يمكن أن يكون شيءٌ ما قد أصاب رقم «صفر» ولذلك لم يستطع الاتصال بنا؟

ظهر الذهولُ في عيون بقية الشياطين، وهتفَت «إلهام»: ماذا تقول يا «عثمان» ... هذا مستحيل!

قال «عثمان» ببطء: ولمَ لا ... إن رقم «صفر» إنسانٌ مثلنا، وهو معرَّض للمرض والإصابة أو ...

وتوقَّف «عثمان» عن الحديث ... وكان ما يقصده واضحًا ... وتلاقَت نظراتُ الشياطين؛ احتمالات عديدة سيئة أمام وجوههم، وفي نفس اللحظة أحسَّت «إلهام» بدفءِ جهاز الإرسال الصغير الذي وضعَته في جيبها، ولم تتمالك نفسَها فصرخَت: هناك رسالة من رقم «صفر».

واختطفَت الجهاز من جيبها، واستمعَت إلى دقَّات الرسالة الخافتة ... وبعد قليل صمتَ الجهاز وعاد إلى بروده ... ولم يكن الشياطين بحاجة لأن تفسِّر لهم «إلهام» معنى دقَّات الرسالة التي جاءَتها توًّا ... وكانت الرسالة تقول في كلمات مختصرة مقتضبة: «تأجَّلَت عودتكم ... ابقَوا في مكانكم لحين وصول تعليمات أخرى ... ولا تحاولوا الاتصال بالمقر السري بأية وسيلة ... انتهى.»

تبادل الشياطين النظرات المتعجبة ... وقال «عثمان»: هذا مذهل ... إنها رسالة عجيبة لم توضِّح لنا شيئًا ... بل لعلها زادَت من حيرتنا.

قالت «إلهام»: هناك شيء ما لا أفهمه ... لماذا حذَّرنا رقم «صفر» أكثر من مرة من محاولة الاتصال به داخل المقر السري؟!

ولم يكن لدى أيٍّ من الشياطين إجابةٌ على سؤالها.

رسالة ضوئية

قال «أحمد» بعد لحظة: هل تظنُّون أن هناك نوعًا من التجسُّس يدور حول مقرِّ الشياطين، ولذلك منع رقم «صفر» اتصالَنا بالمقر حتى لا يلتقطَ الأعداء رسائلنا؟

عثمان: من المستحيل التقاطُ رسائلنا إلى المقر السري؛ لأن هناك أجهزة تشويش إلكترونية تعمل بداخل المقر ولا تسمح لأيِّ أجهزةِ تجسس التقاط الرسائل.

بو عمير: ولكن في كلِّ لحظة يتم إنتاج أجهزة جديدة قادرة على اختراق التشويش والتقاط الرسائل بالرغم من ذلك التشويش مهما كانت قدرته الإلكترونية.

خالد: ربما يكون هذا هو ما حدث بالفعل، ولكن هذا لا يعني أن يطلب منَّا رقم «صفر» البقاءَ هنا.

إلهام: هذا ما لا أفهم له تفسيرًا ... لماذا يريد رقم «صفر» بقاءَنا هنا ونحن بلا مهمة عمل.

أحمد: إن هذا الموقف يضاف إلى موقف رقم «صفر» عندما طلب منَّا القيام بتلك الإجازة المفاجئة وعدم العودة إلى المقر السري ... وها هو يطلب منَّا مواصلة البقاء هنا بلا سبب مفهوم!

وضاقَت عيناه وهو يُضيف: هل تظنون أنه يريد إبعادنا عن المقر السري؟

هتف «بو عمير»: ولكن لماذا؟

خالد: هذا ما لا يعرفه أحد غير رقم «صفر» ... إنه أمر عجيب جدًّا أن يمنعنا من الاتصال به ... هل تظنون أن هناك مَن يتجسس علينا؟

عثمان: لو كان هذا صحيحًا لأخبرنا رقم «صفر» بذلك ولكلَّفنا بالبحث عن هذا الجاسوس أو هؤلاء الجواسيس بدلًا من منعِنا من الاتصال به.

أحمد: هل تظنون أننا سنبقى طويلًا قبل أن تَصِلَنا رسالةٌ جديدة من رقم «صفر»؟

إلهام: مَن يدري ... وأرجو ألَّا تكونَ الرسالة القادمة تطلب منَّا مواصلة البقاء أيضًا.

وظهر عليها شيءٌ من الملل والضيق وقالت: سأذهب إلى عشتي؛ فليست لي رغبة في السهر أكثر من ذلك.

واتجهت «إلهام» إلى عشَّتِها البوصية ... وجلسَت وحدها في الظلام وهي تفكِّر في سرِّ تصرُّفِ رقم «صفر» ... وكانت هي وحدها التي تملك جهازَ الإرسال والاستقبال بالمقر السري، وجال خاطرٌ في ذهنها ... هل تتصل برقم «صفر» برغم كلِّ التحذيرات لتستوضح منه سببَ طلبِه العجيب في عدم اتصالهم به ... ولكنها فكَّرت في أنها بذلك ستكون قد خالفَت أوامره ... ولم يكن أيٌّ من الشياطين يستطيع مخالفةَ أمر رقم «صفر» مهما حدث.

كان عليها الانتظار إلى أن تأتيَ رسالةُ رقم «صفر» التالية.

وفكَّرَت «إلهام»: ... هل يمكن أن يفكِّر أحدُ الشياطين مثلَها ويحاول الاتصال برقم «صفر» بدون أن يُخبرَها؟ ... وكان هذا احتمالًا قائمًا بالرغم من صعوبة حدوثه ومخالفة أيٍّ من الشياطين للتعليمات ... ولكن كان على «إلهام» أن تتأكد بنسبة مائة في المائة ... وكان عليها إخفاءُ جهاز الإرسال والاستقبال بحيث يستحيل العثور عليه لأحدٍ غيرها.

ووضعَت «إلهام» جهازَ الإرسال حول وسطِها وثبَّتَته جيدًا ... ثم أسندَت رأسها على وسادتها ونامَت ... وبعد قليل نهض «قيس»، و«بو عمير»، و«خالد»، واتجهوا إلى أماكن نومهم ... ولم يبقَ غيرُ «عثمان» و«أحمد» اللذَين بقيَا جالسَين على الشاطئ يرنوان إلى الجبال البعيدة ... وقد تلألأَت السماء ببعض النجوم كأنها فصوصٌ ماسيَّة تلمع في عيون الليل.

ومرَّت لحظاتٌ من الصمت ثم سأل «أحمد» «عثمان»: هل لديك تفسيرٌ لما يحدث لنا؟

عثمان: مَن يدري ... إن رقم «صفر» يطلب منَّا أحيانًا أشياء غريبة ... ثم نفهم تفسيرَها بعد ذلك، ومن المؤكد أن هناك سببًا مقنعًا وراء طلبِه بقاءَنا هنا وعدم الاتصال به.

وفجأةً اندفعَت «إلهام» نحو «أحمد» و«عثمان» وهي تلهث بشدة، وهتفَت فيهما: لقد أتَت رسالةٌ جديدة من رقم «صفر».

– وما هي؟

نطق «أحمد» و«عثمان» في صوت واحد. حملقَت «إلهام» في «أحمد» و«عثمان» لحظةً قبل أن تقول ببطء: لقد طلب مني رقم «صفر» أن أُخبرَكم جميعًا بأنه محرَّمٌ على الجميع التحدُّث بأيِّ شيء يخصُّ عملَنا أو المقرَّ السري أو أية عمليات سابقة أو آتية.

قال «عثمان» ذاهلًا: ماذا تقولين يا «إلهام»؟!

إلهام: هذا هو ما حدث ... لقد منعَنا رقم «صفر» من الحديث مع بعضنا بخصوص عملنا ... مهما كانت الأسباب.

أحمد: ولكن هذا أمر عجيب ... عجيب جدًّا! إنني لا أفهم سرَّ ما يحدث هنا! ... هل يظن رقم «صفر» أن هناك مَن يتجسس علينا ويخشى أن نذكرَ بعضَ الأسرار عن عملنا فيلتقطها هؤلاء الجواسيس؟

عثمان: لو كان هذا صحيحًا لذكَر رقم «صفر» لنا ذلك صراحة ... ولطلب منا القبض ببعضها وقد سيطر عليهم قلقٌ لا حدَّ له وتراقصَت على هؤلاء الجواسيس.

قال «أحمد» محتدًّا: إذن ما هو تفسير ما يحدث؟!

عثمان: إنني في حيرة شديدة، ولا أفهم سرَّ ما يحدث.

نهض «أحمد» وهو يقول لـ «إلهام»: أرجوك أعطني جهاز الإرسال ... من الضروري أن أبعثَ برسالة إلى رقم «صفر» عمَّا يحدث لنا.

إلهام: هذا مستحيل. إن أوامر رقم «صفر» واضحة ... لا اتصال به من جانبنا.

أحمد: ولكنني رئيس مجموعتكم، ومن الضروري ...

قاطعَته «إلهام»: إن التعليمات واضحة ... ولا تستثني أحدًا.

ترامق الاثنان لحظة ... ونكَّس «أحمد» رأسَه وهو يقول: معكِ حقٌّ، يبدو أن توتُّري جعلني أفكِّر بطريقة خاطئة.

إلهام: سأذهب لأوقظَ بقيةَ الشياطين لأُخبرَهم بالرسالة الجديدة.

عثمان: ألَا يمكن الانتظار حتى الصباح لإخبارهم.

إلهام: لا ... إن التعليمات واضحة ... الآن.

واتجهَت «إلهام» إلى مكان نوم «خالد»، و«قيس»، و«بو عمير» ... ونهض «عثمان» وهو يقول: لا فائدة من البقاء والسهر ... سأذهب لأنام، فهذا أفضل ما نفعله.

واتجه «عثمان» إلى عشته ... وبقيَ «أحمد» وحيدًا ... بعد قليل نهض «أحمد» وتحرَّك فوق الشاطئ ... وبدأ يبعد عن المعسكر ... وخاضَت قدماه في المياه وتبلَّل حذاؤه ولكنه لم يُبالِ ... ولم يحسَّ بالصخور الحادة في نهاية الشاطئ، والتي كادَت تُدْمي قدمَيه ... كان هناك أمرٌ عجيب يشلُّ تفكيرَه ... ما معنى تعليمات رقم «صفر» العجيبة؟ وفجأةً خطر له أمرٌ مذهل ... هل يمكن أن يكون هناك مَن استطاع معرفةَ شفرة الشياطين وموجة الإرسال الخاصة بهم، وهو الذي قام بإرسال هذه الرسائل العجيبة لهم؟ وبمعنى

آخر: هل تمَّ التشويشُ على رسائل رقم «صفر» إليهم، وبثُّ رسائل مزيفة إليهم بتعليمات مزيفة؟ ... وكان هذا أمرًا هائلًا أن يكون هناك عدوٌّ لديه هذه القدرة الهائلة على اختراق أدق خصوصيات وأسرار الشياطين. وكان هذا معناه أن الشياطين في خطر عظيم ... ومقرهم السري أيضًا ... ورقم «صفر» كذلك ... كان تفسير «أحمد» لو تحقَّق، معناه تدميرُ المنظمة بالكامل.

وكاد «أحمد» يندفع عائدًا إلى زملائه ليُخبرَهم بما استنتجه ... وفجأةً توقَّف مندهشًا عندما لمح الضوءَ البعيد الذي يضوي ويَخْفِت بطريقة متقطعة ... وراقب «أحمد» الضوء ... كان من المستحيل على أيِّ شخص آخر أن يراه من الشاطئ ... بل يجب أن يتجه إلى أطرافه ذي الصخور الحادة المدبَّبة ليتمكَّن من رؤية ذلك الضوء ... فهل يمكن أن تكون الصدفة قد قادَته ليكتشفَ شيئًا ما قد يكون له علاقة بما يدور حوله من أمور عجيبة؟ ... ولم يصدِّق «أحمد» عينَيه.

كانت ومضاتُ الضوء رسالة ... رسالة تُشبه دقَّاتِ جهاز اللاسلكي تمامًا ... رسالة ذات شفرة خاصة ... هي نفسها شفرة الشياطين. وكانت الرسالة تقول: «اسبح وحدك وتعالَ نحو مصدر الضوء.»

وتوقَّف «أحمد» ذاهلًا وهو يتساءل ... هل هو المقصود بالرسالة؟! ... وكيف عرف صاحبها أنه يقف في المكان المناسب لرؤية الضوء؟!

لم يكن الأمر صدفة على الإطلاق ... كان هذا أمرًا مؤكدًا. واختفى الضوء لحظة، وجاءت رسالة جديدة تقول: «لا وقتَ للضَّياع ... الأمر هام وخطير جدًّا ... أسرِع بالسباحة نحو مصدر الضوء.»

ودقَّ قلبُ «أحمد» وهو يتساءل: هل يمكن أن يكون ذلك الضوء وتلك الرسالة فخًّا لاصطياده من أعداء مجهولين؟

لم يكن أمام «أحمد» من تصرُّف آخر غير المخاطرة ... فقد تكاثرَت طلاسم ألغاز تلك الليلة بصورة لا تُحتمَل ... وكان عليه كشفُ أسرارها ... وبلا تردُّد ألقى «أحمد» بنفسه في قلب الماء، وأخذ يسبح باتجاه مصدر الضوء.

الشيطان المزيف

في أقل من ربع ساعة وصل «أحمد» إلى مصدر الضوء ... ولكن الكشاف الصغير انطفأ فجأةً وغَرِق المكان في الظلام ... وتطلَّع «أحمد» حولَه في دهشةٍ وشكٍّ ... كان الماءُ حوله باردًا ... وقد ظهرَت أضواء الشاطئ بعيدة شاحبة، وقد أحاط به الماء من كل جانب ... واختفى مصدر الضوء العجيب بطريقة مدهشة.

وفجأةً، ظهر على البُعد زَوْرقٌ بخاريٌّ صغير، أخذ يتهادَى بلا صوتٍ فوق صفحة الماء، ثم استقر على مسافة عشرة أمتار من «أحمد» ... فكاد أن يسبح مُتجهًا نحوه، لولا أن أوقفَه صوتٌ يقول: فلتبقَ في مكانك.

توقَّف «أحمد» مندهشًا ... كان الصوتُ يبدو مألوفًا لديه بطريقة غير عادية ... وأطلَّ وجهٌ من داخل الزورق في قلب الظلام بملامح غير واضحة ونظارة سوداء كبيرة. وهتف «أحمد» غيرَ مصدق: رقم «صفر»؟

وأجابه الصوت المألوف الدافئ: لم تكن هناك وسيلةٌ أخرى للاتصال بك وحدك غير تلك الطريقة ... كان من المهم استدعاؤك بدون أن يشعر زملاؤك بذلك.

قال «أحمد» في حيرة: ولكن يا سيدي، إنني لا أفهم شيئًا مما يدور حولنا منذ وصولنا إلى هذا المكان.

رقم «صفر»: سأشرح لك كلَّ شيء يا «أحمد» ... فهذا ما استدعيتُكَ لأجله ... إنها مهمة خاصة ... خاصة جدًّا، وقد يتوقف عليها مصيرُ الشياطين الـ «١٣» بأكملهم ... بل لعلها مهمةٌ يتوقَّف عليها بقاءُ منظمة الشياطين بأكملها.

وصمتَ لحظة ثم أضاف: وهي مهمة خاصة بك وحدك ... فالأمور ... كلُّها في يدك الآن ... ونجاحُكَ في مهمتك القادمة يعني بقاءَ المنظمة وتغلُّبَها على الخطر الذي يتهدَّدها ... أما فشلُكَ فسوف يكون له نتائج سيئة ... ورهيبة ... هل تسمعني؟

– إنني مُنصِتٌ لك تمامًا يا سيدي.

– كما تعلم، فإن آخر رسائلي إليكم كانت تنصُّ على عدم اتصالكم بي، بل وعلى عدم التحدث فيما بينكم عن أسرار عملكم الخاصة، ولا بد أن تلك التعليمات قد أدهشَتكم! ... ولكنك عندما ستعرف الحقيقة ستُدرك غرضي تمامًا ... إن هناك شيطانًا مزيفًا وسطكم.

– ماذا؟! هتف «أحمد» في ذهولٍ طاغٍ.

– هذه هي الحقيقة يا «أحمد» ... وهي حقيقة مذهلة كما ترى، ومن أجلها منعتُكم من الاتصال بالمقر السري؛ حتى لا يكتشفَ ذلك الشيطان موجاتِ الإرسال التي نتراسل بها والشفرة الخاصة بنا ... ومن أجل ذلك أمرتكم أيضًا بمنعِ التحدُّثِ مع بعضكم حول أسرار المقر السري والمنظمة.

قال «أحمد» بدهشة عظيمة: ولكن لماذا لم تُخبرنا يا سيدي عن هذا الشيطان المزيف فنقبض عليه؟!

– لا ... لا أستطيع؛ ذلك لسبب بسيط ... وهو أنني أجهل مَن يكون مِن الشياطين قد تمَّ تزييفُه وتبديله ... إن كل ما أثق به، هو أنك الوحيد الذي لا يمكن أن يكون الشيطان المزيف ... فعندما أنهيتم مغامرتكم السابقة بنجاح وأثناء نومكم استعدادًا للسفر في اليوم التالي، فقد قامت منظمة معادية مجهولة لنا حتى الآن، هذه المنظمة قامت باختطاف أحد زملائك أثناء نومه، ثم بدَّلَته بشخص آخر يُشبهه تمامًا في كل التفاصيل؛ الطول، والوزن، والملامح ... وحتى بصمات الأصابع تم تطابقها بعملية جراحية كما حدث لملامح الوجه ... لقد تم إبدال الشيطان المخطوف بآخر يُطابقه في كلِّ شيء تمامًا، وهو السبب الذي جعلكم لا تفطنون إلى حقيقة ذلك الشيطان المزيف الذي يعرف أشياء كثيرة عنكم وعن مهماتكم وعملياتكم السابقة ... ولقد عرفنا تلك المعلومات بسرية شديدة، وفي آخر لحظة قبل عودتكم إلى المقر السري ومعكم الشيطان المزيف ... ومن أجل هذا كانت أوامري لكم بالاتجاه إلى هذا الشاطئ لتمضيةِ بعضِ الوقت.

أحمد: ولكن من السهل يا سيدي اكتشاف ذلك الشيطان المزيف بأشياء عديدة كثيرة؛ منها تحليل الدم، وأجهزة كشف الكذب، وغيرها من الوسائل.

رقم «صفر»: هذا صحيح، وإن كان معناه أن زملاءك جميعًا سيخضعون إلى هذا الكشف لاكتشافِ الشيطان المزيف بينهم، وسوف يكون لذلك أثرٌ سيِّئ عليهم جميعًا ... بالإضافة إلى أن تركَ الشيطان المزيف طليقًا بدون أن يشكَّ في أننا نعرف حقيقتَه ... هذا العمل هو جزءٌ من خطَّتِنا للإيقاع به ... وبمَن دسَّه على الشياطين ... ولا تنسَ أننا لو قمنا

بالقبض على الشيطان المزيف بعد اكتشاف حقيقته، فإن ذلك قد يعني موتَ الشيطان الحقيقي ... لأنه في يد أعدائنا المجهولين، وهم لن يتوانَوا عن قتله في حالة اكتشافنا شخصية الشيطان المزيف والقبض عليه.

مرَّت لحظاتٌ صمت، ثم قال «أحمد»: وما العمل يا سيدي؟

رقم «صفر»: ليست أمامي غيرُ خطة واحدة، ولن يستطيع القيامَ بها أحدٌ غيرك ... إن مهمتك القادمة هي اكتشافُ مَن مِن الشياطين ... هو الشيطان المزيف.

قال «أحمد» بدهشة: ولكن كيف أعرفه يا سيدي؟

– بالخبرة ... بالإحساس ... بالمشاعر ... إن الأجهزة الإلكترونية وأجهزة كشف الكذب يمكن خداعها ... ولكن مشاعر الإنسان وأحاسيسه تدلُّ على الشيء الصحيح تمامًا، وأنا واثق في أنك ستكتشف الشيطان المزيف بإحساسك ... فهناك آلاف الخبرات والذكريات المشتركة بينك وبين بقية الشياطين. ولا بد أن الشيطان المزيف سيأتي بأفعال وأقوال لا تتفق مع صاحب الشخصية الأصلي ... ومن هنا سيمكنك اكتشافُ حقيقته ... فمهما كان هؤلاء الأعداء المجهولون على علمٍ بتفاصيل حياة وتصرُّفات الشيطان الذي تمكَّنوا من خطفه؛ فمن المؤكد أن هناك أشياءَ يجهلونها عنه ... ومن هنا يمكن أن يُخطئَ الشيطان المزيف فيها.

وصمتَ رقم «صفر» لحظة ثم قال: سوف تبقَون فوق الشاطئ إلى أن تتمَّ مهمتُك ... وكما أخبرتُك فهي مهمة على أكبر قَدْر من السرية، وتتوقَّف عليك وحدك ... وغير مسموح لك أن تطمئنَّ إلى أيٍّ من بقية الشياطين أو تُخبرهم بطبيعة مهمَّتِك مهما كانت درجة ثقتك في أيٍّ من الشياطين في أنه ليس الشيطانَ المزيف ... هل فهمتَ؟

تمامًا يا سيدي ... ولكن هل هناك احتمال بأن ذلك الشيطان المزيف قد يكون ... قاطعه رقم «صفر»: تمامًا يا «أحمد» ... إنه قد يكون «إلهام».

تجَّهم وجهُ «أحمد» وعلاه شعورٌ من الحزن والكآبة ... وقال رقم «صفر» بعد لحظة: هل هناك أية أسئلة؟

– ماذا سأفعل بالشيطان المزيف إذا اكتشفتُ حقيقته؟

من الأفضل الاحتيال عليه لنقبضَ عليه حيًّا، حتى يمكنَنا المساومة لإنقاذ الشيطان الحقيقي ... وإن كان من الأفضل كثيرًا مراقبته لعلك تكتشف مَن يقف خلفه، وبذلك نستطيع إنقاذ الشيطان الحقيقي والقبض على الشيطان المزيف في وقت واحد ... أما قتل الشيطان المزيف فهو لا يعني غير شيء واحد ... أن يُقتل الشيطان الحقيقي المخطوف أيضًا.

وصمت رقم «صفر» ثانيةً ثم أضاف محذرًا: إنك ستراقب بقية الشياطين لاكتشاف مَن يكون الشيطان المزيف من بينهم ... وتأكَّدْ أن الشيطانَ المزيف سيراقبُكَ أيضًا ... وإذا شكَّ أنك عرفتَ الحقيقة فسيبادر بالهرب ... وهذا معناه أيضًا موت الشيطان المخطوف.

أحمد: لا تخشَ شيئًا يا سيدي ... لن يشعر أحد الشياطين بما أقوم به من عمل.

رقم «صفر»: إنها مهمة لن تستخدم فيها القنابل أو الرصاص، بل سيكون سلاحُك هو عقلَك ومشاعرَك وأحاسيسك ... ولكنها برغم ذلك قد تكون أخطرَ مهمة قام بها أحد الشياطين في حياته.

– إنني أُدرك ذلك تمامًا يا سيدي.

– لن يكون هناك أيُّ اتصال بيننا ... وعندما تكتشف حقيقةَ الشيطان المزيف، وتتأكد تمامًا؛ فعليك بالوقوف في نفس المكان الذي تلقيتَ فيه الإشارات الضوئية، على أن تقوم أنت بتوجيهها وإرسالها إلى قلب البحر، وتأكد أنها ستصلني ... وحذارِ من استخدام جهاز اللاسلكي؛ فقد يكون أعداؤنا يعلمون موجاتِ اتصالنا ويلتقطون رسالتَك فينكشف الأمر، وفقك الله!

وأدار رقم «صفر» محرِّكَ زورقِه البخاري وانطلق به إلى قلب البحر ... وبعد لحظات تبدَّد صوتُ الزورق، وعاد الهدوء يشمل المكان ... ولكنه كان هدوءًا قاتلًا. وأحسَّ «أحمد» بأن رأسَه يكاد ينفجر ... لم يكن يصدِّق ما سَمِعه حتى تلك اللحظة ... وكيف أمكن تبديل أحد الشياطين بمثل تلك الصورة وزرع شيطان آخر مزيف مكانه؟! وكيف عاش ذلك الشيطان المزيف وسطهم بدون أن يكتشفوا حقيقته؟! وكيف خدعَتْهم مشاعرُهم وخبرتُهم السابقة إلى ذلك الحد؟!

وإذا كان هذا قد حدث في الأيام السابقة ... فمَن يضمن أنه لن يحدث مرة أخرى ... وأنه قد يفشل في الاهتداء إلى الشيطان المزيف وأن تخدعَه أحاسيسُه؟

بل وما الذي يضمن له أنه قد يشكُّ في أحد الشياطين ... ولا يكون هو الشيطان المزيف.

وبدأ «أحمد» السباحة، وهو يضرب الماءَ ضرباتٍ محروقةً ... كان يحسُّ بالنار متقدة في جسده كلِّه ... وكان هناك سؤال رهيب لا يزال يدوِّي في رأسه، كان يحاول الهرب منه بلا فائدة ... ماذا لو كانت «إلهام» هي الشيطان المخطوف؟! وأن تلك الأخرى الموجودة الآن على الشاطئ ليست هي «إلهام» الحقيقية ... وإذا كان ذلك هو ما حدث حقيقة، فكيف خدعَته مشاعرُه فلم يكتشف الحقيقةَ خلال الأيام السابقة؟! وطاف سؤالٌ آخر بذهنه،

ترى ماذا سيحدث لو فشل في اكتشاف الشيطان المزيف ... وأي الأخطار سيتعرَّض لها الشياطين جميعًا؟

ووصل أخيرًا إلى الشاطئ، والصداع يدقُّ في رأسه بمطارقَ عنيفةٍ ... وما كاد يخرج من الماء حتى وجد شبحًا واقفًا في الظلام ويحدِّق فيه في دهشةٍ وشكٍّ ... وسألَته «إلهام» بعينَين ضيقتَين: ما الذي كنت تفعله في قلب البحر في منتصف الليل يا «أحمد»؟

رحلة في الفجر!

لم ينطق «أحمد» ... ونظر إلى عينَي «إلهام» الواسعتَين ... العسليَّتَين ... ثم إلى شعرها الأسود الطويل وأنفها الدقيق ... كان يسأل نفسَه بلا وعْيٍ ... هل يمكن أن تكون هي؟

وسألَته «إلهام» بدهشة: «أحمد» ... لماذا تُحدِّق فيَّ بمثل هذه الصورة ... ماذا حدث؟

قال «أحمد» بتردد: لا شيءَ يا «إلهام» ... إنني أشعرُ فقط ببعض التعب.

سألَته بدهشة: أَلِأجلِ هذا ذهبتَ للسباحة في منتصف الليل؟

وكان في سؤالها مزيجٌ من الشك والحيرة ... وأجابها «أحمد»: لقد رأيت أن السباحة في الماء البارد قد يُنعشني قليلًا، خاصة عندما جافاني النوم ... سأذهب إلى فراشي.

واتجه إلى عشته البوصية في صمت ... وراقبَته «إلهام» بعينَين مليئتَين بالدهشة، وهي تسأل نفسها: تُرى ماذا حدث لـ «أحمد»؟ ... ولماذا يبدو مضطربًا مرتبكًا بمثل هذه الطريقة؟ ولماذا حملق فيها بتلك الطريقة العجيبة كأنه يريد أن يتأكد من شيء ما؟! ... ولكن ما الذي أراد أن يتأكد منه؟!

وبخطوات بطيئة اتجهَت «إلهام» إلى فراشها ...

ولم يَنَم «أحمد» تلك الليلة ... وبقيَ مسهَّدًا يتقلَّب فوق فراشه ... وأخذ يسترجع كلَّ ما مرَّ به من أحداث مع بقية الشياطين خلال أيام الإجازة الماضية ... كان يريد أن يكتشف شيئًا ما قد غاب من ذهنه وقتَها ... شيءٌ ما قد يكون له صلة بشخصية الشيطان المزيف ... ولكن كل التصرفات السابقة كانت عادية بالنسبة للشياطين ... حقيقةً إن «إلهام» كانت أكثرَ انطلاقًا ومرحًا عن طبيعتها ... ولكن هذا لا يدعو للشك فيها؟

«عثمان» أيضًا كان يبدو أقلَّ مرحًا من المعتاد ... ولم يذكر اسم «بطة» — كرته الجهنمية — أبدًا خلال الأيام السابقة ... ولكن هل يدعو ذلك إلى الشك فيه؟

«قيس»، و«خالد»، و«بو عمير» كانوا يبدون على سجيَّتهم ... غير أنهم كانوا يتواجدون أغلب الوقت معًا ... فيسبحون معًا ويصيدون معًا ... ولكن هل يدعو ذلك للشك في أحدهم؟

وأحسَّ «أحمد» أن رأسَه سينفجر ... وتذكَّر سؤال «إلهام» عندما صادفَته أثناء خروجِه من الماء ... وسأل نفسه ... هل كان يبدو عليه شيءٌ ما يَشِي بما يدور في عقله؟

وكان عليه أن يضعَ تصرفاتِه ومشاعرَه في ثلاجة حتى لا يشكَّ أحدٌ في مهمته السرية ... إن مجردَ الشك فيه قد يعني قتْلَ الشيطان الأسير ... وقرابة الفجر استطاع النومَ بمشقة ... واستيقظ بعد ساعة بالضبط.

كانت حاستُه قد أيقظَته بطريقة عجيبة، ونهض بسرعة وارتدى ملابسه، وأطلَّ برأسه من باب العشة ... كان الوقت لا يزال مبكرًا، وأضواء الفجر تفرش المكان بستائر فضية ... والسكون يخيِّم على المعسكر والشاطئ ... لم يكن هناك أحدٌ مستيقظًا غيره ... فلماذا أيقظَته غريزتُه فجأة بلا سبب ... هل يمكن أن يكون قد أصابها اضطرابٌ أيضًا؟

وفجأة، سَمِع صوتًا ضعيفًا في الخلف ... وبسرعة قفز داخل عشته وأغلق بابها ... ومن بين فتحاتها الصغيرة أطلَّ إلى الخارج ... ولم يصدِّق «أحمد» ما تُشاهده عيناه ... فقد فُتح بابُ عشة «عثمان» ... وأطل منها بوجهه الأسمر وبملابس الاستحمام.

وكان في الوجه الأسمر ملامحُ عجيبة ... من الشك والريبة والحذر ... وعندما اطمأنَّ إلى أن المكانَ خالٍ، وأن أحدًا لم يستيقظ بعد، أغلق بابَ عشتِه بهدوء، واتجه خارجًا من المعسكر في خطوات خفيفة ... سريعة.

وما كاد «عثمان» يبتعد قليلًا حتى قفز «أحمد» خارجًا من عشته كالفهد في أثر «عثمان».

وسأل «أحمد» نفسَه في توتُّر شديد ... هل يمكن أن يكون «عثمان» هو الشيطان المزيف؟ ولكن إجابة السؤال كانت سابقة لأوانها ... سار الشيطان الأسمر فوق الشاطئ الخالي متجهًا ناحيةَ الصخور في نهاية الشاطئ، وتوقف لحظة، ونظر خلفَه، فأسرع «أحمد» يتوارَى خلف بعض النخيل القصير، وقد خشيَ أن يكون «عثمان» قد سَمِع خطواتِه الخفيفةَ على الرمال ... توقَّف «عثمان» لحظات وهو ينظر حوله ... وعندما اطمأنَّ واصلَ سيْرَه باتجاه الصخور الحادة ... ثم بدأ في تسلُّقها حتى اختفى خلفها.

وتردَّد «أحمد» هل يواصل مطاردته لـ «عثمان» أم لا ... وكان تسلُّقُه الصخورَ كفيلًا بكشفه لمن يكون وراءَها ... ولأول مرة يحس «أحمد» بتردد شديد يكاد يشلُّه. وكان أسوأ

ما في الموقف أنه يراقب أحدَ الشياطين، رفاق مئات المهمات السابقة التي تعرَّضوا فيها للموت معًا.

كم من مرة أنقذ «عثمان» من الموت ... وكم مرة أنقذه «عثمان»، من هلاك محقق.

لَكَمْ يحبُّ هذا الشيطانَ الأسمر ... ولكن لم يكن هناك مفرٌّ من استمرار المطاردة.

وحسم «أحمد» تردُّدَه، وبدأ في تسلُّقِ الصخور الحادة ... وما كاد يعتليها حتى سَمِع صوتَ زورقٍ بخاريٍّ، وشاهد «أحمد» «عثمان» وهو ينطلق في عرض البحر بزورق بخاري سريع، وظهر الغضبُ الشديد على وجه «أحمد» ... لقد خدعه «عثمان» ... وكانت كلُّ الظروف تؤكِّد أنه الشيطان المزيف ... أولًا: استيقاظه المبكر المريب ... ثم ذلك الزورق العجيب الذي لا يدري متى حصل «عثمان» عليه، ولا كيف أخفاه خلف تلك الصخور ... كان «أحمد» متأكدًا أنه لم يلمح ذلك الزورق مساءَ أمس عندما كان يسير في نفس المكان وشاهد رسالة رقم «صفر» الضوئية ... ومن المؤكد أيضًا أن شخصًا ما قد أتى بذلك الزورق إلى «عثمان» منذ وقت قليل، وكان واضحًا أن عثمان قد استقل الزورق واتجه به إلى قلب البحر لمقابلة شخص ما.

شخص قد يكون له علاقة باختطاف الشيطان الأسمر ... ومن المؤكد أن «عثمان» هذا مزيف ... وارتعد «أحمد» من الغضب ... ولم يكن حوله أيُّ زورق لمطاردة «عثمان» ... ولم يكن هناك وقتٌ للحصول على ذلك الزورق.

وبلا ترددٍ ألقى «أحمد» بنفسه في الماء وشرع يسبح في قوة خارقة كأنه يسابق الزمن.

كان يريد أن يتأكد بنسبة مائة في المائة ... وظهر زورق «عثمان» كنقطة بعيدة فوق وجه الماء، وواصل «أحمد» سباحتَه الشاقة وتتبَّعَه ... وبعد نصف ساعة أصاب «أحمد» الإرهاقُ بسبب سرعته البالغة في السباحة ... فتوقَّف لاهثًا وهو ينظر حوله ... لم يكن لـ «عثمان» أو زورقه أيُّ أثر ... وكان البقاء في مكانه ... أو مواصلة البحث عن «عثمان» مهمة فاشلة.

لم يكن أمام «أحمد» غير العودة مرة أخرى إلى الشاطئ ... وعندما وصل إلى منطقة الصخور كان الإجهاد قد أخذ منه بشدة ... وكان إحساسه بالجوع قد تضاعف؛ فهو لم يأكل منذ ظُهْر الأمس ... وتحامل «أحمد» على نفسه ونهض ... ولم يكن الزورق البخاري في مكانه خلف الصخور، وكان هذا معناه أن «عثمان» لم يَعُد من مهمته بعد ... وسار «أحمد» باتجاه الشاطئ ... ولمح بقيةَ رفاقه جالسين أسفل بعض النخيل القصير وقد ظهر في عيونهم القلق، وهم يمسحون الشاطئ بعيونهم بحثًا عنه.

واتجه «أحمد» إليهم ... ولم يكن «عثمان» بينهم، وأسرعَت «إلهام» نحوه في قلق شديد وهي تقول: أين كنتَ يا «أحمد» ... لقد قلقنا عليك بشدة عندما وجدنا بابَ عشتك مفتوحًا ولا أحدَ بداخلها.

قال «أحمد» مقطِّبًا: لقد نهضتُ مبكرًا وذهبتُ للسباحة.

سأله «قيس» بدهشة: ولماذا سبحتَ في اتجاه الصخور؟

وتأملَت «إلهام» «أحمد» بدهشةٍ أكبر وسألَته: وما الذي جعلك تستيقظ مبكرًا للسباحة ... بالرغم من أنك سبحتَ عند منتصف الليل ... إن الإجهاد يبدو واضحًا عليك ... ولا بد أنك سبحتَ مسافة طويلة ...

تجاهل «أحمد» سؤالَ «إلهام»، ونظر حولَه وقال متسائلًا: أين «عثمان»، إنني لا أره؟

قال «بو عمير»: لقد استيقظنا ولم نجده.

أين يمكن أن يكون قد ذهب في هذا الوقت المبكر؟!

وفجأة أشار «خالد» إلى مدخل الشاطئ قائلًا: ها هو «عثمان».

ونظر «أحمد» بسرعة حيث أشار «خالد» ... وشاهد «عثمان» آتيًا وهو يحمل عددًا من ثمرات الشهد بين يدَيه بوجهه الأسمر اللامع ... وأقبل «عثمان» نحوهم ضاحكًا وهو يقول: هل استيقظتم جميعًا مبكرين؟ ... كنت أريد أن أجعلها مفاجأة لكم.

سأله «أحمد» في خشونة: أين كنت يا «عثمان»؟

هتف «عثمان»: ألَا ترى ... لقد ذهبتُ لشراء بعض الشهد لنفطرَ به؛ فطعمُه لذيذٌ جدًّا.

قالت «إلهام» في دهشة: هل ذهبتَ لشراء شهد ... قبل شروق الشمس؟!

شقَّ «عثمان» إحدى الثمرات وبدأ يتذوقها في تلذُّذٍ وهو يقول: إن البدو الذين يبيعونه يأتون به مبكرًا ... ولو انتظرتُ قليلًا لباعوا كلَّ ما عندهم.

ومدَّ نصفَ ثمرة طازجة إلى «أحمد»، وهو يقول له: تذوَّقها يا «أحمد» ... إنها رائعة.

وتلاقَت عينَا الشيطانَين ... وكانت نظرات «أحمد» قاسية ... باردة ... متجهمة ... أما عينَا «عثمان» فكانت تبتسم في براءة طفولية ... تناول «أحمد» قطعة الشهد وبدأ يأكلها في صمت ... وكانت شهيةً رائعةَ المذاق، ولكن «أحمد» لم يحسَّ لها بأية حلاوة ... ولم يستطع كتمانَ سؤاله أكثر من ذلك، فقال لـ «عثمان»: لقد لمحتُ شخصًا يركب زورقًا بخاريًّا وينطلق به إلى قلب البحر في الصباح الباكر.

ضحك «عثمان»، وهو يقول: وهل ظننتَه أنا ... ومن أين سأحصل على زورق بخاري؟ ... ولماذا أنطلق به إلى قلب البحر في الصباح المبكر؟!

وفي نفس اللحظة أطل فأرٌ كبير من جحرِه بالقرب من الشاطئ أمام العشش البوصية، وفي سرعة البرق أخرج «عثمان» من جيبه كُرتَه المطاطية السوداء وصوَّبها نحو الفأر فأصابَته كالقذيفة ... وسقط الفار قتيلًا بلا حَراك.

واستعاد «عثمان» كرتَه المطاطية وأعادها إلى جيبه ... وكان في عينَيه نظرةٌ سوداء متوحشة.

خطة جماعية ... للقتل

وانقضى نهارُ ذلك اليوم في هدوء ... ولم تغفل عينَا «أحمد» عن مراقبة «عثمان» لحظة واحدة ... ولكن تصرفات «عثمان»، كانت طبيعيةً جدًّا بقية اليوم.

ولاحظَت «إلهام» شرودَ «أحمد» وصمْتَه، فسألَته: ماذا بك يا «أحمد»؟ ... إنك تبدو اليوم لا رغبةَ لك في أي شيء ... فلم تتناول في الإفطار إلا قليلًا من الطعام ... وحتى الشهد اللذيذ الذي أحضره «عثمان» رفضتَ أن تأكل منه واكتفيتَ بالرقود على الشاطئ.

نظر «أحمد» إلى «إلهام» ولم ينطق ... وكان يتمنَّى لو استطاع إخبارها بما يدور في عقله ... كان بحاجة إلى إنسان يشاركه تلك المسئولية الضخمة. وكاد يفتح فمه بالكلام ... ولكن الكلمات ماتَت على شفتَيه ... وتجهَّم وجهُه وهو يسأل «إلهام»: ألم تأتِ رسائلُ جديدة من رقم «صفر»؟

هزَّت «إلهام» رأسَها نافيةً في صمت ... ونهض «أحمد» وهو يقول: سأذهب للسباحة قليلًا في الماء.

وكان «عثمان» قد سبقه بإلقاء نفسه في الماء ... ولاحظَت «إلهام» ذلك فاندهشَت قليلًا ولم تُعلِّق ... كانت قد لاحظَت أن «أحمد» يكاد أن يتتبع «عثمان» في كلِّ حركاته ... فإن ذهب للمعسكر ذهب خلفه ... وإن تجوَّل على الشاطئ تَبِعه بعينَيه ... وها هو يُلقي بنفسه في البحر خلفه.

وعاد «عثمان» بعد قليل وهو يقول لبقية رفاقه: إنني أحسُّ ببعض التعب والخمول ... سأذهب لأنام قليلًا.

وكما توقَّعَت «إلهام» ... فقد خرج «أحمد» من البحر ... وظهر عليه بعضُ التردد في الذهاب خلف «عثمان» بعد أن لاحظَ نظراتِ «إلهام» إليه.

ونهض «قيس» وهو يقول: سأذهب للغوص قليلًا في البحر.

وابتسم إلى «أحمد»، قائلًا: لماذا لا تأتي معي؟

تردَّد «أحمد» لحظة، ولكن «قيس» جذبه من يده قائلًا: إنك تبدو كسولًا اليوم فتعالَ معي.

واتجه الاثنان إلى زورق بخاري سريع استأجره «قيس» ... وكان هناك زورق آخر يركبه «خالد» و«بو عمير»، وقد ارتدوا ملابس الغوص أيضًا.

وانطلق الزورق إلى قلب البحر ... واندهش أحمد ... فإن مَن يرغب في الغوص يمارسه بالقرب من الشاطئ، وفي النواحي التي تكثر فيها الشعب المرجانية والأسماك الملونة النادرة ... وليس في قلب البحر ... ولكنه لم ينطق.

كان هناك شعورٌ خفيٌّ ينتابه ... ذلك الشعور الذي أخبره عنه رقم «صفر» ... فبرغمِ شكِّ «أحمد» في «عثمان» ومراقبته، فإن ذلك الشعور لم ينتابه تجاهه ... وبالرغم من عدم شكِّه في «قيس» و«خالد» و«بو عمير» ... فإن ذلك الشعور بالريبة كان يأكله.

وتساءل «أحمد» ذاهلًا في نفسه ... هل يمكن أن يكون أحدهم هو الشيطان المزيف؟ ولكن كيف؟! ... و«عثمان» مَن يكون؟

وكتم «أحمد» مشاعرَه واحتفظ بهدوئه ... وكان يشعر أن إصرار «قيس» على مصاحبته لهم في رحلة الغوص لها سببٌ آخر ... وتوقَّف الزورقان على مسافة كيلومتر من الشاطئ ... ولم يكن حولهما غير الماء في كل اتجاه ... وكانت الشمس تُوشك على الغروب وراء الجبال البعيدة.

واستعد الشياطين الثلاثة للغوص في الماء، فسألهم «أحمد»: أليس من الخطر غوصُكم في ذلك الوقت المتأخر؟! ... سوف يُظلم الجو سريعًا وسيتحول قلب الماء إلى قطعة من الظلام.

ابتسم «خالد» وأخرج كشافًا كهربيًّا كبيرًا من زورقه وهو يقول: ولهذا أتينا بهذا الكشاف الكهربي الكبير.

أحمد: ولكن ماذا ستفعلون في قلب الماء؟ ... ليس هناك ما يُغري بالغوص في قلب الماء على مسافة كيلومتر من الشاطئ!

أبرز «بو عمير» بندقيةَ صيد في الأعماق من زورقه وقال: لقد جئنا للصيد.

وناول كلًّا من «خالد» و«قيس» بندقية لكل منهما ... وتساءل «أحمد» بدهشة: وماذا ستصيدون هنا؟

ضاقَت عينَا «قيس»، وقال: أسماك القرش.

وأخفى كلٌّ منهم وجهَه بقناع الغوص بعد أن ثبَّتوا أنابيب الأوكسجين فوق ظهورهم ... ثم لوَّحوا لـ «أحمد» وألقَوا بأنفسهم في الماء ... وبعدها غاصوا سريعًا في قلبه ولم يَعُد لهم أيُّ أثر غير فقاعات قليلة من الهواء كانت تصعد إلى سطح الماء ثم تتكسر سريعًا ... وعاد السكون يشمل المكانَ حول «أحمد». سكون قاتل ... يُشبه السكون الذي يسبق العاصفة.

كان شكُّ «أحمد» قد تصاعد إلى قمَّته ... وكان يتساءل عن معنى غوص الشياطين الثلاثة في ذلك المكان العجيب ... وهل ذهبوا حقًّا لصيد أسماك القرش ببنادق صيد تحت الماء؟ ... ولماذا؟

لماذا تبدو تصرفاتهم عجيبة غريبة محيرة؟! ... وتبدَّد النور تمامًا ... وحلَّت العتمةُ بسرعة ... ولم يَعُد هناك أيُّ أثر للشياطين الثلاثة، وحتى فقاعات الهواء اختفَت من سطح الماء، وكان من الواضح أنهم ذهبوا بعيدًا.

ونظر «أحمد» في ساعته بقلق ... فقد انقضَت ساعتان منذ غوص الشياطين الثلاثة ... ولم يَعُد باقيًا أمامهم على نفاد الأوكسجين في أسطواناتهم غير دقائق قليلة.

ولكن ربع ساعة أخرى مرَّت بدون أن يظهر أيٌّ من الشياطين الثلاثة.

وفجأة تلوَّن وجهُ الماء بلونٍ أحمرَ دامٍ ... وبرغم الظلام فقد كان لون الماء الدموي القاتم واضحًا. وكأن هناك نهرًا من الدم قد انفجر في المكان ... ودق قلب «أحمد» بعنف ... من أين أتَت كلُّ تلك الدماء؟ ... وما معنى ذلك؟! ... ومن بعيد بدأ سطح البحر يتحرك ... ويضطرب ... وظهرَت زعانف سوداء مثلثة الشكل تشقُّ صفحة البحر باتجاه الدماء التي تحاصر زورق «أحمد». كانت هي أسماك القرش ... ولقد أثارَتها رائحةُ الدماء وجذبَتها فانطلقَت نحوها بصورة جنونية.

واندفعَت أسماك القرش تضرب زورق «أحمد» بصورة عنيفة وقد أهاجَتها رائحة الدماء.

وعرف «أحمد» أنه ما لم يُسرع بالابتعاد عن المكان، فسوف تتمكن أسماك القرش الكبيرة من تحطيمِ الزورق بفكوكها الحادة، أو قلْبِه في الماء وإغراقه ... وبلا تفكير اندفع نحو محرِّك الزورق وجذب ذراعَه ... ولكن كأنَّ شيئًا لم يحدث ... وانخلعَت الذراع في يد «أحمد» فنظر إليها ذاهلًا ... كان من الواضح أن يدًا قد عبثَت بتلك الذراع وحطَّمَتها ... حتى لا يدورَ المحرك واندفعَت أسماك القرش تُواصل ضرْبَها العنيف للزورق البخاري ... وتحطَّم أكثرُ من جانب في الزورق، وبدأ الماء يتسرَّبُ بداخله ... بعد أن غَرِق الزورق الثاني بالفعل.

وأصاب الذهولُ «أحمد» ... كان من المؤكد أن واحدًا من الشياطين الثلاثة «قيس» و«خالد» و«بو عمير» هو الشيطان المزيف، وهو الذي حطَّم ذراع المحرك قبل غوصه، وتمكَّن بطريقةٍ ما من جلب كمية ضخمة من الدماء وسكبها حول الزورق.

وكان اكتشاف «أحمد» متأخرًا ... ولم يكن لديه أيُّ أمل على الإطلاق؛ فقد امتلأ الزورق بالماء وتأهَّبَت أسماك القرش المتوحشة على التهام فريستها الحية.

العيون الذئبية

وقفَت «إلهام» في قلقٍ عظيم أمام الشاطئ وبجوارها «عثمان» الذي ارتسمَت على وجهه ملامحُ مقطَّبة ... وهتفَت «إلهام» في خوف: لقد تأخروا كثيرًا ... إنني قلقة بشدة عليهم.

عثمان: لا تخشَي شيئًا ... لا داعيَ للخوف على الشياطين.

تلفَّتَت «إلهام» حولها وهي تقول: يجب أن نبحث عن زورق وننطلق إلى البحر فورًا ... فربما كان الشياطين الأربعة بحاجة إلى مساعدة.

عثمان: وأين سنبحث عنهم في هذا البحر الواسع؟ سنكون أشبهَ بمَن يبحث عن إبرة في كومة قش، خاصة في هذا الظلام ... ومن الأفضل لنا الانتظار.

ومرَّت لحظاتٌ قصيرة من الصمت ... كانت ساعة «إلهام» في مِعْصمها تُشير إلى منتصف الليل ... وكان الهدوء والسكون يشملان المكان حولهما ولا يُسمَع فيه غير صوت أنفاسهما المتوترة.

وصاحَت «إلهام»: انظر يا «عثمان».

ومن الأمام ... على مسافة قليلة ظهرَت ثلاثةُ أشباح سوداء وهي تبرز من قلب الماء ... وكانت ترتدي ملابس الغوص، وقد تخلَّصَت من أنابيب الأوكسجين والأقنعة.

وصاحَت «إلهام»: إنهم الشياطين.

واندفعَت نحوهم ... وكان الشياطين الثلاثة؛ «قيس» و«خالد» و«بو عمير» يقاومون الموجَ ويبذلون أقصى طاقتهم للوصول إلى الشاطئ والإجهاد العظيم قد وضح عليهم بشدة.

واندفع «عثمان» و«إلهام» نحوهم يساعدونهم، حتى جذبوهم إلى الشاطئ، فاستلقى الشياطين الثلاثة فوق الرمال. قالت «إلهام» في فزع: ماذا حدث؟! وأين «أحمد»؟ ... ولماذا عُدْتُم بدون الزورقَين؟

أجاب «قيس» بصعوبة: لقد تركنا «أحمد» داخل أحد الزورقين وهبطنا إلى الماء للغوص، ويبدو أننا نسينا أنفسنا وسرقَنا الوقت، وصَعِدنا إلى أعلى، ولكننا لم نعثر على أيِّ أثر للزورقَين لـ «أحمد».

وأكمل «خالد»: وكل ما وجدناه مكانه هو بقعة كبيرة من الدماء لا ندري من أين أتت ... وكان هناك بعضُ حطام الزورقَين ... ولم يكن هناك أيُّ أثر لـ «أحمد».

صرخَت «إلهام»: ماذا تقول؟! ... وأين ذهب «أحمد»؟

خالد: لا ندري ... لم يكن له أيُّ أثر هناك ... وكل ما شاهدناه عددٌ كبير من أسماك القرش التي كانت تحاصر المكان وتبدو عليها الشراسة، ولولا أننا كنا نحتاط بالحبر الخاص بطرد أسماك القرش لانقضَّت علينا وافترسَتنا ... ولم يكن أمامنا أيُّ فائدة من البقاء فاضطُررنا للعودة سابحين.

صرخَت «إلهام»: مستحيل أن تكونوا قد تخلَّيتم عن «أحمد» بمثل تلك البساطة ... لا يمكن أن تكونوا قد تركتموه لأسماك القرش.

اكتسى وجهُ «قيس» بتعبيرٍ قاسٍ، وقال: لم يكن له أيُّ أثر هناك ... ولم نكن نستطيع أن نفعل شيئًا.

انفجرَت «إلهام» باكيةً وهي تقول: لا يمكن أن يكون «أحمد» قد انتهى على تلك الصورة ... لا يمكن أن تكونَ نهايتُه بمثل تلك الطريقة البشعة.

ونظرَت بعينَين مذهولتَين إلى بقية الشياطين قائلةً: ولكن من أين أتَت كلُّ تلك الدماء التي شاهدتموها؟! ... وما الذي استدعى كل أسماك القرش فحطَّمَت الزورقَين؟

خالد: لقد جاءَت أسماك القرش بسبب رائحة الدماء ولا شك ... ولا بد أنها هاجمَت زورقَ أحمد.

إلهام: مَن الذي ألقى هذه الدماء في البحر ... بجوار زورق «أحمد»؟

لم ينطق أيٌّ من الشياطين الثلاثة ... وأكملَت «إلهام» ذاهلةً: مَن الذي فعل ذلك ... ولماذا لم يحاول «أحمد» الابتعادَ بزورقه عندما بدأَت أسماكُ القرش مهاجمتَه؟

قال «بو عمير» مقطِّبًا: مَن يدري ماذا حدث ... إن المسألة تبدو غامضة جدًّا.

صاحَت «إلهام»: يجب أن نُسرع إلى «أحمد»؛ قد يكون بحاجة إلى مساعدة منَّا.

أمسكَ «عثمان» بمعصم «إلهام»، وقال لها: تمالكي نفسَكِ يا «إلهام» ... ليس هناك ما نستطيع عمله.

إلهام: إن ما يحدث لنا في هذا المكان جنونٌ مطبق. هذه الأحداث العجيبة التي تمرُّ بنا ... لماذا تركَنا رقم «صفر» بمثل هذه الصورة؟ ... هل نسيَنا؟!

وانتزعَت جهازَ الإرسال من جيبها بعنفٍ وهي تقول: سوف أتصل برقم «صفر» حالًا.

عثمان: لا يا «إلهام» ... لقد حذَّرنا رقم «صفر» من ذلك. ومن المستحيل علينا مخالفة تعليماته.

قالت «إلهام» بعينَين مبلَّلَتَين بالدموع: أَلَا تستحقُّ حياة «أحمد» أن نُخالفَ التعليماتِ ولو مرة واحدة؟! ... هل يمكن أن نفقد «أحمد» بمثل هذه الصورة البشعة ولا نُخبر رقم «صفر» بذلك على الأقل؟

قيس: لن يُفيدَ هذا في شيء ... إن أخبار رقم «صفر» بما حدث لـ «أحمد» لن يغيِّر من مصيره.

خالد: علينا أن ننتظر رسالتَه القادمة لنُخبرَه بما حدث لـ «أحمد».

بو عمير: ومَن يدري ... ربما لا تأتي رسالة رقم «صفر» التالية ... أبدًا.

عثمان: ماذا تقصد يا «بو عمير»؟ وتلاقَت أنظار «خالد» و«قيس» و«بو عمير»: إننا في وضع عجيب وغير مألوف أبدًا وحتى تصرفات رقم «صفر» تبدو غيرَ معتادة ولا تفسيرَ لها ... ولذلك فإنني أتوقَّع أيَّ شيء منذ هذه اللحظة.

وفجأةً اندفعَت «إلهام» صارخةً نحو المياه المظلمة، وبرز من قلب الماء شيءٌ يتحرك ... وصاحَت «إلهام» بأعلى صوتها: «أحمد»!

وكان الشيطان العجيب يخرج من قلب الماء في نفس اللحظة ... كأنما نجا من الموت بمعجزة فريدة ... وتبادل «قيس» و«خالد» و«بو عمير» نظرةً مذهلة غيرَ مصدقين ... ثم اندفعوا جميعًا نحو «أحمد» وتعاونوا جميعًا في حمله إلى الشاطئ ... كان «أحمد» يبدو في حالة يُرثَى لها من الضعف ... وامتلأَت عينَا «إلهام» بدموع السعادة، وأخذَت تُربِّت على جبهة «أحمد»، وهي تقول: حمدًا لله على عودتك سالمًا ... لقد فقدنا الأمل في نجاتك.

قيس: لقد ظننا أنك غرقتَ؛ ولذلك عُدْنا وحدَنا.

أغمض «أحمد» عينَيه من شدة التعب، وقال: لقد كادَت أسماك القرش أن تفترسَني بالفعل لولا أن ظهَر في اللحظة الأخيرة يختٌ سياحي كان يستقلُّه بعضُ السياح؛ فقاموا بالتقاطي من الماء ... وفقدتُ الوعيَ لديهم فترة وبعدها أفقتُ، طلبتُ منهم إعادتي إلى الشاطئ فتركوني على مسافة قريبة منه.

إلهام: الحمد لله ... إن العناية الإلهية كانت تحرسك.

نظر «عثمان» إلى «أحمد»، وقال: هل تظن أنها محاولةٌ لقتلك يا «أحمد» بإلقاء الدماء حول زورقك.

رمق «أحمد» «قيس» و«خالد» و«بو عمير» بعينَين مجهدتَين وقال: مَن يدري ... لعل هناك مَن يريد التخلص مني بأي وسيلة خوفًا من افتضاح أمره.

تساءلَت «إلهام» بدهشة: ماذا تقصد يا «أحمد»؟

ولكن «أحمد» لم يردَّ ... وغَرِق في سُبات عميق.

وفي نفس اللحظة ارتسمَت في عيون «خالد» و«قيس» و«بو عمير» نظراتٌ حادة ... أشبه بنظرات الذئاب المتوحشة ... وكان من الواضح أنهم لا يصدقون حتى تلك اللحظة كيف نجا «أحمد» من الموت بتلك المصادفة العجيبة.

إلهام ... آخر المزيفين

حمل «عثمان» «أحمد» فوق كتفه ثم مدَّده في عشته ... وقال للباقين: لا أظن أنه سيستيقظ قبل الصباح.

إلهام: هل تظنون أن هناك خطرًا يُهدِّدنا؟

عثمان: ولماذا تقولين ذلك؟

إلهام: وهل هناك معنى لمحاولة قتل «أحمد» غير ذلك ... إن هذا الخطر المجهول يُهدِّدنا جميعًا بكل تأكيد.

قيس: لو كان ذلك صحيحًا ما سمح لنا أعداؤنا المجهولون بخروجنا من البحر أحياء ونحن بلا سلاح غير بنادق الصيد في الأعماق، لقد كان ما صادف «أحمد» من أخطار الليلة مجردَ سوء حظ.

وتثاءب وهو يُكمل: فلنذهب للنوم؛ فإنني أحسُّ بتعب شديد.

تساءلَت «إلهام»: و«أحمد»؟

أجابها «خالد»: لا تخشَين شيئًا ... فلن يجرؤَ أحدٌ على الاقتراب منه ونحن بجواره.

وانصرف الشياطين، واتجه كلٌّ منهم إلى عشته ... وفي نفس اللحظة اعتدل «أحمد» وفتح عينَيه ... فلم يكن فاقدًا وعْيَه ... كانت هناك خطة في ذهنه ... وكان يريد تنفيذها بدون أن يحسَّ به باقي الشياطين ... كان يريد الوصول إلى «إلهام» وحدَها ... بدون أن يشعر الباقون ... فقد كان متأكدًا من شيء واحد ... شيء رهيب لم يخطر بباله ... أن الشياطين الأربعة مزيفون ... وليس شيطانًا واحدًا ...

كانت حركاتُ «عثمان» المريبة وركوبُه الزورق وانطلاقُه إلى قلب البحر ثم إنكاره ذلك، وكذلك محاولةُ «قيس» و«خالد» و«بو عمير» قتْلَه ... كان ذلك يعني أن الشياطين الأربعة مزيفون ... وأنهم لا بد قد اكتشفوا أن «أحمد» يشكُّ فيهم ... أو لعلهم استنتجوا

اتصالَه برقم «صفر»؛ ولذلك قرروا التخلص منه ... وكانت تلك نتيجةً مذهلة لم يتوقعها «أحمد» أبدًا ... ولكن أحداث اليوم أكَّدَتها ... وكان «أحمد» يريد أن يُخبر رقم «صفر» بذلك بواسطة الرسالة الضوئية ... ولكنه خشيَ أن يُراقبَه أحد الشياطين الأربعة المزيفين أثناء الليل؛ ولذلك تظاهر بفقدان الوعي ... وكان يريد أيضًا أن يُخبر «إلهام» بالنتيجة التي توصَّل إليها ... ويُخبرها بكل التفاصيل، كانت هي الوحيدة التي يمكنه الوثوق بها ... والوحيدة التي دلَّته مشاعرُه على أنها لا يمكن أن تكون مزيفةً أبدًا ... ونهض «أحمد» في خفَّة النمر ... وفتح بابَ عشته وأطلَّ في حذرٍ للخارج ... كان المعسكر هادئًا ساكنًا لا حركةَ فيه ... وغادر «أحمد» عشتَه، وأغلق بابَها، وسار في حذرٍ باتجاه عشة «إلهام»، وفي نفس اللحظة انفتح بابُ عشة «إلهام»، فقفز «أحمد» وتوارَى وراء إحدى الأشجار ... وشاهد «إلهام» وهي تخرج من عشتها، فكاد يندفع إليها لولا أن أوقفه شيء عجيب شاهده في يد «إلهام» ... كان في يدها مسدسٌ مزوَّد بكاتمٍ للصوت ... وتعجَّب «أحمد» وتساءَل في نفسه، من أين أتَت «إلهام» بذلك المسدس، وقد جاء الشياطين الستة إلى هذا المكان بلا سلاح؟!

وتعجَّب أكثر، إلى أين ستمضي «إلهام» ... وما الذي ستفعله بهذا المسدس، ولأول مرة بدأ يحس بالشك ... في «إلهام» ... وأصابه ذهولٌ قاتل وهو يسأل نفسَه: هل يمكن أن تكون «إلهام» أيضًا قد تمَّ تزييفُها؟ هل يكون الشياطين الخمسة مزيفين؟

كان ذلك الخاطر جنونيًّا ... ولكن ما شاهده «أحمد» كان يؤكد ذلك تمامًا.

وحبس «أحمد» أنفاسَه وهو يشاهد «إلهام» تقترب من عشته ... وتوقَّفَت «إلهام» لحظةً وهي تنظر حولها، ثم امتدَّت يدُها وصوَّبَت مسدسها نحو عشة «أحمد» عبر بابها الخوصي المغلق ... وكان مسدسها مصوبًا باتجاه فراش «أحمد» ... وأطلقت «إلهام» رصاصة ... ثم رصاصة أخرى من مسدسها الكاتم للصوت.

وأحس «أحمد» بالعرق الغزير ينساب فوق وجهه ... فلولا أنه غادر عشته لربما كان في عِداد الأموات ... وبرصاصات «إلهام»!

دفعَت «إلهام» بابَ العشة بقدمها وهي تصوِّب بطاريةً صغيرة نحوها ... وأصابها الذهولُ وهي تشاهد العشةَ خاليةً من «أحمد».

وعلى الفور انتفضَت إلى الخلف وهي تنظر حولها ولكنها لم تشاهد أحدًا ... فأطفأَت بطاريتها ووقفَت في الظلام تفكِّر لحظات ... ثم اتجهَت خارجة من المعسكر.

وفي حذر بدأ «أحمد» يتتبَّعها. سارَت «إلهام» باتجاه الشاطئ ... ثم انحرفَت يمينًا نحو مدخله ... وسار «أحمد» خلفها على مسافة والنخيل القصير بامتداد الشاطئ يمثِّل له أفضل حماية ...

وصلَت «إلهام» إلى مدخل الشاطئ فتجاوزَته وهي تُلقي حولها نظراتٍ متشككة ... كان من الواضح أنها تبحث عن «أحمد» ولا تدري أين اختفى.

واتجهَت نحو الصحراء الواقعة خلف الشاطئ ... وكان الطريق مظلمًا ولكن «إلهام» أخذَت تسير بثقة عجيبة كأنها خبيرةٌ به وتحفظ كلَّ شبر فيه، وبدون أن تفكِّر حتى في إشعال بطاريتها اليدوية الصغيرة.

ومن قلب الظلام ظهر شبحٌ ملثَّمٌ يمتطي جملًا — وكان يبدو أحد البدو — واقترب الجمل براكبه البدوي من «إلهام» وتبادل معها حديثًا قصيرًا ... ثم أشار جهة اليسار فهزَّت «إلهام» رأسَها وانطلقَت حيث أشار البدوي.

وابتعد البدويُّ بجمله ... ومن قلب الظلام ظهرَت سيارةُ جيب صغيرة سوداء اللون، كانت تبدو كما لو أنها قطعةٌ من الظلام ذاته.

وقفزت «إلهام» إلى مقعد القيادة ... وعلى الفور انطلق «أحمد» بأقصى سرعته ... وفي اللحظة المناسبة تعلَّق بمؤخرة السيارة بدون أن تنتبهَ «إلهام» إليه ... وانطلقَت السيارة تشقُّ قلب الرمال ... والظلام ... وفكَّر «أحمد» ... كان من الواضح أن «إلهام» ذاهبةٌ لتُقابلَ رؤسائها ... أو مَن خطَّطوا لتلك العملية الجهنمية.

فجأة طاف بذهن «أحمد» خاطرٌ مذهل ... هل يمكن أن تكون «إلهام» هي الشيطان المزيف ... الوحيد؟

فقد كان باستطاعتها وهي على الشاطئ أن تأتيَ بالدماء وتستقلَّ قاربًا في الظلام، ثم تقترب من تحت زورقه غوصًا فتُفرغ الدماء حوله وتنزع ذراع المحرك دون أن يُنتبهَ إليها وتعود من حيث أتَت ... ويظن هو أن «قيس» و«خالد» و«بو عمير» هم الذين دبَّروا لقتله ... أما «عثمان» فلعل هناك سببًا ما في انطلاقه بالزورق البخاري صباح اليوم السابق ثم إنكاره ذلك ...

أصبحَت الحقيقة واضحة أمام «أحمد» ... وكانت محاولتُها قتْلَه هي التي كشفَتْها له ... وها هي تسعى في الظلام لمقابلة زعيم تلك العملية الجهنمية التي خطَّطَت لها في براعة ... ولا شك أنه «إلهام» أفزعها عدمُ قتلها «أحمد» واختفاؤه العجيب، فقرَّرت الذهابَ إلى رأس العملية في مكان ما لتُخبرَه بما حدث ... وبدون أن تنتبهَ إلى أن «أحمد» يختفي في نفس السيارة.

وبعد وقتٍ هدَّأَت السيارة من سرعتها وتوقَّفَت في الطريق ... وغادرَت «إلهام» السيارة واتجهَت نحو خيمة واسعة أُقيمَت خلف بعض التلال القريبة.

وفي حذرٍ بدأ «أحمد» يتتبُّعها بلا صوت ... وبدأت أضواء الفجر تظهر في الأفق ... وعوى ذئب من مكان ما.

وما إن ظهرَت «إلهام» أمام مدخل الخيمة حتى خرج منها أربعةُ أشخاص أخفى الظلامُ ملامحَهم ... وسأل أحدهم: هل تخلصتِ منه؟

أجابت «إلهام»: لا ... يبدو أنه شكَّ بنا؛ ولذلك غادر عشتَه.

وفي نفس اللحظة غمر الفجرُ المكانَ بأنواره ... وظهرَت وجوهُ الأشخاص الأربعة المحيطين بـ «إلهام» واضحةً تمامَ الوضوح.

وحملق «أحمد» في تلك الوجوه ذاهلًا ... فلم تكن غير وجوه «عثمان» و«قيس» و«خالد» و«بو عمير»، وأحسَّ «أحمد» إنه لأول مرة لا يفهم شيئًا ... كأنه يسبح في دوامة هائلة لا قرارَ لها ... لا يعرف إن كانت «إلهام» هي الوحيدة المزيفة ... أم أن بقية الشياطين كذلك ... ولا يفهم معنى كلِّ ما يحدث حوله ... ولا كيف استطاع الشياطين الأربعة الوصولَ إلى ذلك المكان!

ولم يكن أمامه غيرُ تصرف واحد وهو يحسُّ أن الوقت يمضي في غير صالحه ... وفي حسمٍ قرر «أحمد» ما سيفعله، وأخرج مسدسًا سريعَ الطلقات من جيب سترته ... واندفع مقتحمًا خيمةَ الشياطين الخمسة.

المفاجأة الأخيرة

فُوجئَ الشياطين الخمسة باندفاع «أحمد» ... وقبل أن تمتدَّ أيديهم إلى أسلحتهم صوَّب «أحمد» مسدسَه إليهم قائلًا: مكانكم ... إذا تحرك أحدكم كانت نهايته أيها المزيفون.

وتأمل «أحمد» الخيمة مندهشًا ... كانت خالية لا شيء بها ... والشياطين واقفون ينظرون إليه بعيون مذعورة.

قال «أحمد»: كانت مفاجأة لي أن الشيطان المزيف ليس واحدًا ... بل كنتم جميعًا مزيفين.

ابتسمَت «إلهام» ساخرةً، وقالت: من العجيب أن تقمُّصَك للدور كان إلى هذا الحد ... الذي تظن أنك أنت «أحمد» الحقيقي ... وأننا المزيفون!

صاح «أحمد»: ماذا تقولين؟!

أجابه «قيس» بهدوء: لقد كنَّا نعرف منذ اللحظة الأولى أنك أنت الشيطان المزيف ... وأنك أنت الذي حللتَ مكان «أحمد».

خالد: وكما توقَّع رقم «صفر»؛ فإنك حاولتَ تقليد «أحمد» في كلِّ شيء حتى لا يتمَّ انكشافُك ... ووصل التقليد بك إلى أن تقمَّصتَ شخصيته بالفعل ورُحتَ تُطاردنا لتعرفَ مَن منَّا يكون هو الشيطان المزيف!

تمالك «أحمد» — أو الشيطان المزيف — نفسَه بشدة ... كانت هناك حبات عرق تلتمع فوق جبهته ... وكان هناك ارتعاشٌ بسيط في أصابعه ... ولم يكن الشيطان «أحمد» يرتعش أبدًا أمام أيِّ خطر.

وارتسمَت في عينَي المزيف نظرةٌ عميقة ... قاسية ... متجهمة ... وقال في لهجة حاقدة: إنني لم أفهم هذه اللعبة بعدُ ... فإذا كنتم تعرفون منذ البداية أنني الشيطان المزيف ... فلماذا تظاهرتم بعدم المعرفة ... وتركتم هذه اللعبة تستمر إلى النهاية؟

بو عمير: كانت اللعبة مزدوجة ... وأردنا أن نشغلك بشيء ما حتى نكتشفَ حقيقتك، ومَن تكون ... وأي منظمة جهنمية تكمن خلفك.

خالد: ولأول مرة يشترك معنا زعيمُنا رقم «صفر» في مغامرة ... ومن العجيب أنه بدراسة سلوكك أمكنه استنتاج وجود استعداد شخصي لديك لتقمُّص شخصية «أحمد» ... ومن هنا قام رقم «صفر» بخداعك بمسألة الشيطان المزيف الذي يوجد وسطنا ... ومن العجيب أنك تصوَّرت أن هناك شيطانًا مزيفًا آخر ... وأنك شيطان حقيقي «أحمد».

بو عمير: وعلى هذا الأساس أخذنا نلعب معًا لعبة ذكاء ... وكنَّا نرغب في تعطيلك أكبرَ قدر من الوقت ... ومن أجل هذا كانت رسالة رقم «صفر» الضوئية لك في منتصف الليل، حتى يتمَّ إبعادُك بعيدًا عنَّا ... وفي نفس الوقت كنَّا نتلقَّى رسالة أخرى من رقم «صفر» بالتعليمات المطلوبة منا.

قال الشيطان المزيف في خشونة: ولكن رقم «صفر» كان في زورق بوسط البحر معي في نفس اللحظة.

قال «عثمان» ساخرًا: لقد كان رجلًا مزيفًا ... إن رقم «صفر» لا يكشف نفسه بمثل هذه السهولة ... كان لا بد من الحيلة لخداعك ... ولقد نجحنا في ذلك إلى أبعد حدٍّ ... وكانت رسائل رقم «صفر» تَصِل إلينا شفويًّا حتى لا يمكن لك أو لمن يقفون خلفك التقاط رسائلنا الشفوية ... ولقد نجحنا في ذلك تمامًا.

صاح المزيف في غضب: أيها الخبيث ... إذن فقد كنت تتلاعب عندما انطلقتَ بزورقك في الفجر إلى عرض البحر.

ابتسم «عثمان» حتى بانَت أسنانه البيضاء، وقال: كانت هناك رسالة ستصل من رقم «صفر» وكان يجب إبعادك عن الشاطئ حتى يستطيع بقية الشياطين مقابلة صاحبها.

ضاقت عينَا الشيطان المزيف وقال: ولكن ... لماذا تسلَّلتم إلى هنا وجعلتموني أتبعكم؟!

خالد: كان يجب إخلاءُ شاطئ العسلة منك ... ومن بقية أعوانك، وجرُّهم خلفنا إلى هنا.

نظرَت «إلهام» في ساعة يدها، وقالت: ولا بد أن الفريق الثاني من الشياطين يقوم الآن ببقية المهمة على خير وجه، في نسْفِ المقر السري لعصابتك داخل جبال سيناء بعد أن اكتشفنا موقعَها.

وما كادت «إلهام» تُكمل عبارتَها حتى دوَّى انفجارٌ هائل على البعد ... وظهرَت كرةٌ كبيرة من اللهب ... وأعقب الانفجارَ الأول انفجاراتٌ متتالية ... وظهر الفزعُ في عينَي الشيطان المزيف، ومسح العرق الغزير المنساب فوق جبهته.

وقالت «إلهام»: لقد تم نسْفُ مقرِّ عصابتك الجهنمية ... عصابة الأصابع الخفية، ولن تقوم لها قائمة بعد الآن.

قال الشيطان المزيف مذهولًا: ولكن ... كيف توصلتم إلى مكاننا؟! ... إنه مكانٌ سريٌّ ويقع في باطن الجبل في مكان يستحيل اكتشافه.

خالد: ومن أجل ذلك كانت محاولة قتلك بأسماك القرش ... لقد كنَّا نحن مَن سكب الدماء حول زورقك وحطَّمنا ذراع المحرك حتى يستحيل عليك الهرب ... وتوقعنا أنك عندما تشعر بالخطر فسوف تستنجد ببقية العصابة، فيهرعون إلى إنقاذك ... وقد حدث ما توقَّعناه، وكنَّا نحن نُراقبك من بعيد فأمكننا تتبُّع العصابة بعد إنقاذها لك ... وأمكننا بالتالي اكتشاف مقر العصابة السري.

وها نحن قد دمرناه بعد أن قمنا بإنقاذ «أحمد» من أيديكم.

ارتعد الشيطان المزيف وهو يقول: هذا مستحيل ... مستحيل. لا يمكن أن تكونوا قد خدعتمونا جميعًا بمثل هذه الصورة.

قيس: كانت حربَ ذكاء ... وكما نحن بارعون في حروب القنابل والصواريخ ... فنحن لا نقلُّ براعة في استخدام عقولنا، وأنت الذي تسبَّبتَ في كشف نفسك؛ لأنك وبرغم كل المعلومات التي وصلتك عنَّا فإنك لم تستوعبها تمامًا عندما تقمَّصتَ دور «أحمد»، وكان لا بد لك من الخطأ ... وكان لا بد لنا من كشفك ... فعندما صِدْنا سمكة القرش معًا قلت أنت مفاخرًا إنك بذلت مجهودًا خرافيًّا في صيدها ... وأيٌّ منَّا لا يقول على عمل قام به مع زملائه أنه قام به وحده أو يتفاخر ... إننا دائمًا نعمل كفريق واحد ونستخدم الضمير نحن لا أنا.

خالد: وأيضًا عندما أردتَ الحصولَ على جهاز الإرسال من «إلهام» لإرسال رسالة إلى رقم «صفر» بالرغم من تعليماته لنا بقطع أيِّ اتصال ... إن أيًّا منَّا لا يفكر في مخالفة تعليمات رقم «صفر» مهما كانت أبدًا ... إن هذه الأشياء جعلَتنا نشكُّ فيك ... إلى أن جاءَت رسالة رقم «صفر» التي حدَّدَت الشيطان المزيف بالضبط وهو أنت.

إلهام: لقد كانت أسهل مهمة قمنا بها في حياتنا ... وأصعب مهمة أيضًا ... فلو أنك اكتشفتَ أننا نعرف حقيقتك وأنك الشيطان المزيف، فربما كان معنى ذلك موت «أحمد».

أشار المزيف إلى «إلهام» بأصبع ترتجف، وقال لها في صوت مضطرب: ولكنكِ كنتِ تتعاملين معي برقة غير عادية ... كأنك ...

قاطعَته «إلهام»: كان هذا أهم جزء في خطتنا أن نتعامل معك كما لو كنت أنت «أحمد» بالضبط ... ومن هنا كانت مشاعري لك ... كأنها مشاعري لـ «أحمد». وكان هذا سببًا كبيرًا في زيادة تقمُّصك لدور «أحمد»، وكان هذا هو ما نريده بالضبط لإنجاح خطتنا.

عثمان: والآن حان إسدال الستار على الفصل الأخير من هذه المسرحية.

صاح المزيف في جنون: أيها المخادعون، لسوف يُسدل الستار الأخير ... ولكن بعد أن أنتقم منكم وأُنهي حياتكم.

وقبل أن يضغط الشيطان المزيف على زناد مسدسه، فجأة انطلقَت ضربةٌ هائلة من اليسار لتُصيبَ المزيف في يده وتُطيح بالمسدس بعيدًا ...

ونظر المزيف ذاهلًا حيث جاءته الضربة ... وكان الواقف أمامه ... «أحمد».

وقف الاثنان يحدِّقان في بعضهما لحظة ...

كانَا متماثلَين في كل شيء ... الطول ... لون الشعر ... لون العينين ... اتساع الفم وقسوته ... حتى ملابسهما كانت متشابهةً تمامًا.

وأفاق المزيف من ذهوله، ثم انطلق يعدو خارج الخيمة ... وانطلق «أحمد» خلفه على الفور، واندفع الشياطين الخمسة خلفهما.

اندفع المزيف إلى سيارة «إلهام» الجيب، وأدار مفاتيحها بسرعة ثم انطلق بها ... وتعلَّق «أحمد» بمؤخرة السيارة في اللحظة الأخيرة وتشبَّث بها بأصابعه ... وانطلقَت السيارة بأقصى سرعتها وسط الرمال ... ولم يكن في استطاعة بقية الشياطين مطاردة السيارة ... وأمسك «عثمان» بمسدسه وصوَّبه نحو الشيطان المزيف، ولكن «إلهام» تعلَّقت بيده صارخة: حاذر يا «عثمان» ... قد تُصيب «أحمد».

وما كادَت تُتمُّ عبارتَها حتى شاهدَت السيارة وهي تندفع منحدرةً إلى جرف عميق وتهوي لأسفل ... وصرخَت «إلهام» في فزع ... وانطلق الشياطين جميعًا يجرون باتجاه السيارة ... وقبل أن يصلوا إلى مكان الجرف تعالَى صوتُ اصطدام رهيب ... ثم صوت انفجار ... وارتفع لهيبُ السيارة المتفجرة عاليًا ... وأغمضَت «إلهام» عينَيها غير مصدقة وانفجرَت في البكاء، وهي تظن أن نهاية «أحمد» كانت على تلك الصورة.

وصاح «قيس»: انظروا.

واندفعوا حذرين حيث أشار ... وأطلوا أسفل الجرف ... وكان مشهدًا عجيبًا ... كان هناك شخصان يتأرجحان في الهواء وقد تعلَّق كلٌّ منهما بأغصان شجرة صغيرة نابتة، وسط الجرف العميق ... وكان الاثنان متشابهان في كل شيء ... حتى في محاولاتهما للنجاة من السقوط لأسفل.

وأخذَت الشجرة تتقلقل من مكانها ... وكان واضحًا أنها لن تصمد أكثر من ثوانٍ قليلة قبل أن تهويَ إلى أسفل بحمولتها.

وصاحَت «إلهام»: يجب إنقاذ «أحمد» فورًا.

خالد: ليس هناك وقت؛ فلن نستطيع الوصول إليه بسرعة ... والشجرة لن تصمد طويلًا أمام ثقل الاثنين.

لمعَت عينَا «بو عمير»، وقال: هناك حلٌّ واحد ... أن يسقط المزيف في الهوَّة فيخف الثقل على الشجرة الصغيرة فتستطيع احتمال وزن «أحمد» إلى أن نُنقذَه.

«خالد» إنها مسألة سهلة، ويمكننا تنفيذها بسهولة.

وأمسك بمسدسه وصوَّبه لأسفل.

ولمع التردد في عينَيه، وكان هناك تساؤل مذهل في ذهنه، ومَن يكون منهما هو «أحمد» ومَن هو المزيف؟

كان الاثنان متشابهَين تمامًا من ذلك العلو، وكان يستحيل اكتشاف مَن منهما يكون «أحمد».

وظهر نفس التردد والقلق على وجوه «عثمان» و«بو عمير» و«قيس».

ولم يكن هناك وقتٌ للانتظار ... وبدَا على الشجرة أنها ستسقط حالًا ... ولم يكن أمام «إلهام» غيرُ حل واحد.

وصوَّبَت مسدسها لأسفل ... وتوقَّف عقلُها عن التفكير تمامًا ... وتحرَّكَت نبضاتُها بعنف ... وامتدَّت فوهة مسدسها نحو العينَين اللتَين كانتَا تستعطفانِها من أسفل ... وأطلقَت الرصاص.

وجاءت رسالة رقم «صفر» ... وكانت تحمل التهنئة للشياطين جميعًا ... وتطلب منهم حزْمَ حقائبهم استعدادًا للعودة.

وأقبلت العربة التي ستحملهم إلى القاهرة ... وتقابلَت عينَا «أحمد» و«إلهام»، واقترب منها «أحمد» وهو يسألها: ولكن كيف ميَّزتِني من كلِّ تلك المسافة؟!

أجابَت بعينين واسعتين: لم يكن عقلي هو الذي ميَّزك ولا عيناي ... كانت مشاعري وقلبي هي التي أحسَّت بك ... إن قلبي لا يمكنه أن يخدعَني بشأنك أبدًا.

وابتسم باقي الشياطين في سعادة لا حدَّ لها.

هنـــداوي